



سيكولوجية الكذب

للإستاذ أحمد مطية الله

لا يكفي ان ندعو تغيير حقيقة من الحقائق كذباً ؛ لانه لا بد ان يعرف من غير احدى هذه الحقائق ان ما تقوم به مخالف للواقع . لذلك وجب علينا ان نضع فاصلاً بين هذين النوعين : كذب المعرفة وكذب الجهل . ولهذا التفرقة شأن كبير في دور القضاء . فالقاضي يتطلب من المصوم او الشهود تقرير الحقائق كما وقعت بعد ان يسموا بميناً على ان يروا برعدهم . ذلك لان فساد الاستنتاج او خطأ الاحكام قد يرجع الى فساد الادلة وكثيراً ما يحدث ان تتناقض هذه الادلة ويتضارب الشهود في اقوالهم ، ومع ذلك فالقاضي يشعر بما نسميه « حسن نية الشهود » اذ لا داعي في بعض الحالات لتلقيق . فلا مناص والحالة هذه ان يزن الحكم هذه الاقوال يميزان يعتمد فيه على دراسة سيكولوجية طرأ على الشهود اثناء افضائهم باقوالهم او في اثناء وقوع الحادث او الجريمة . لذلك كانت الخبرة والمران اكبر عون للقاضي في مثل هذه الحالات ، بل وقد تدرج بعض علماء النفس لوضع مقاييس خاصة واجهزة ابتكرت لاختبار درجة صدق الشاهد اثناء ادلائه بمعلوماته

يعتمد العلم الحديث في ابحاثه على المشاهدات الحسية « Sense Observation » ويرفض كل دليل لا يعتمد على هذه القاعدة ، ومع ذلك فهذه الحواس التي هي اداة التحقيق والفصل كثيرة الخطأ سريعة الخداع — فلذلك لا نرى عدلاً ان نسمي النية بكل ما يقرره البعض اذا توافر ومعتقداتنا الثابتة . فالعاب الحوارة المختلفة تثير دهشتنا لاننا لا نكاد نصدق امكان وقوعها

فتغيير الحقائق الذي يرجع الى قابلية الحواس للخداع والوهم ليس لنا ان ندعوه كذباً بالمعنى الصحيح . ولما كانت الحواس بطبيعتها ترتقي وتندق بالاستعمال والمران كان هذا النوع من الكذب منتشراً بين الاطفال ، فالطفل لا يتفق معنا على ان الاشجار التي يراها من نافذة الطائر ثابتة لان عينه تقرر له بانها تتحرك بالنسبة اليه . ولمثل هذا السبب سجن غليلو لما حاول ان يقنع مواطنيه بان الارض دائرة حول الشمس

وكما أن الطفل يرى الحقائق بعينه ويسمعها بأذنيه ، فهو له القدرة على تحيلها إذا اراد ، وإذا علمنا أن قدرة الطفل على التخيل واسعة مرنة في سنه العشر الأولى ، فلا غرابة إذا رأينا أن كثيراً مما يتصوره الطفل يختلط بما يقع في دائرة حواسه ، فيعجز في كثير من الأحيان عن أن يميز بين ما يحسه وبين ما يتخيله
ومن السهل على المريية أو الأم أن تميز هذا النوع من الكذب لاسيما في تلك الحالات التي يكون الدافع لها الفرع أو الخوف

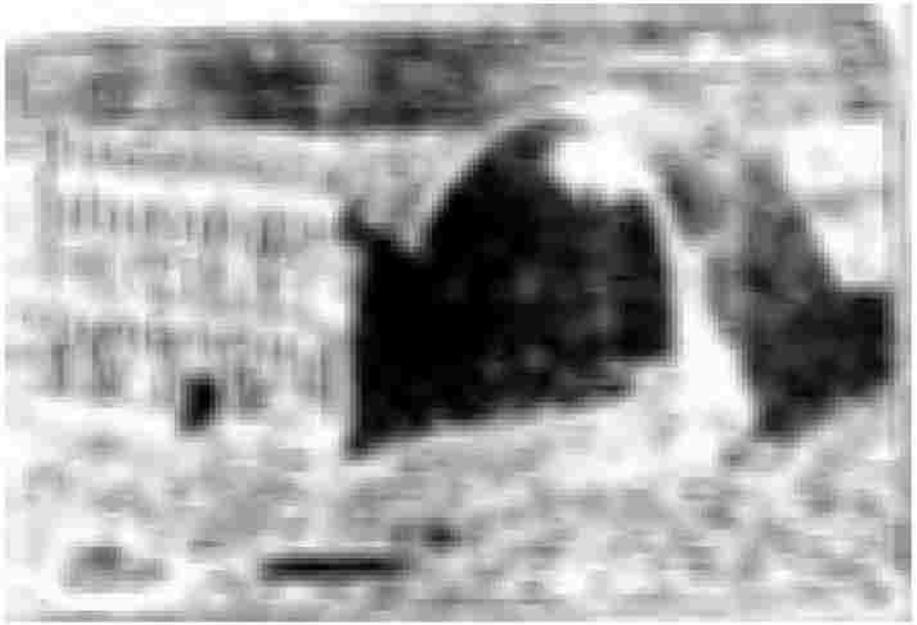
فالطفل قبيل النوم وفي حجرته المظلمة تتجسم له اباطال القصص الخرافية التي سمعها في الصباح ، وتستحيل له ظلال النافذة أو القماطر اشباحاً ومررة وهمس الهواء وخفيف التائر أصواتاً واضحة أو ديبب حشرات مؤذية . بل كم من صبي يستيقظ فجأة وهو قابض على كفيه خذراً من أن تملت منها قبضة السمائم التي رآها في حلمه ، ولا يتورع لاثبات صدق قوله عن أن يقسم لنا إيماناً غليظة ، أو أن يبحث عن هذه السمائم المفقودة بين لغائف غطائه . فما سبق نقرر أن دراسة الدوافع للكذب ضرورية لتعرف طبيعته . وهنا ننقل من الطفل الصغير الى البالغ

لماذا يتعمد المتهم بجرمة أن يغير حقيقة من الحقائق ؟ ذلك لأنه يشعر بأن ذكر هذه الحقائق يرجع عليه باللائمة أو بالعقاب . فكذبه نتيجة اختيار لمسلكين يعرف طاقبة كل منهما ، هذا الى الاقرار والعقاب ، وهذا الى النكران ودره الخطر . فالكذب وسيلة لتلافي بعض الأخطار التي قد تقع على الفرد — والميل لتلافي الخطر بالمهرب منه غريزة عميقة في النفس تسمى الى تحقيقها يشق الوسائل . والنكران وسيلة سهلة إذا أمن الفرد عقابها المزدوج ، عقاب الاجرام وعقاب التفضيل

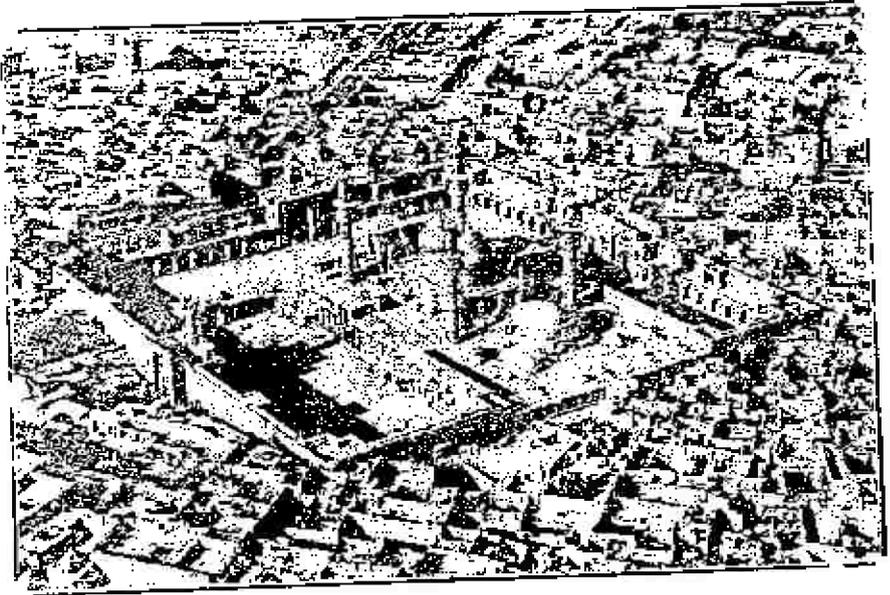
فيحلت إذ ذاك نزاع داخلي وصراع بين طبيعتين ، غريزة المحافظة على النفس من فاحية ، والرغبة في تحقيق مبدأ أخلاقي سام يؤمن به الفرد من ناحية أخرى . ونشاهد آثار هذا الصراع في تعلم المتهم وتردده وارتبائه — حيناً يقر وحيناً ينقض ما قاله من قبل إذا بدت له وجهة نظر أخرى . والكذب عند الصبيان أو البالغين يرجع في بعض الحالات الى ذلك الشعور بالاتصار والظفر الذي يملأ نفس الواحد منهم إذا رأى أن تبيعه لحقيقة من الحقائق يثير الدهشة عند سامعيه أو الاهتمام والناية ، فيستحيل الشك عنده حقيقة يصدقها هو لكثرة تكراره إياها ويتوسع فيها حتى ترسخ فيه عقيدة فالشاهد الذي يرى ان لأقواله قيمة لم يمتد أن تقدر هكذا تقديراً خطيراً ، ولم ينظر إلى أمثالها في حياته الماضية نظراً احترام ، ينهز مثل هذه الفرص ليشرح من حوله

عقلانه ومقام معلوماته ، لا سيما إذا وقف مع من هم أرفع منه قيمة على قدم المساواة أمام منصة القضاء . والدوافع التي تدفع العقل إلى الكذب تدور بأجمعها حول رغبته في نكران نقص في سلوكه أو أعماله ، ولما كان تلافي هذا النقص يتطلب جهوداً قد يقصر عنها الطفل الضعيف في قواه العقلية أو ذو الخيال القياض نراه يحاول جحود ذلك بالمغالاة في أدواله والأكثر من ذكر الدقائق التافهة التي يظن أنها قد تأخذ بلب السامع لها . والدافع للكذب في مثل هذه الحالات قد لا يشعر به الطفل فهو يكذب على نفسه كما يكذب على غيره ويتغالي في تقديراته للمشاهدات أو النتائج كما يتغالي في حديثه مع سواه فالطفل الذي تخونه ذاكرته عند قص حكاية شائعة سمعها لا يرى بداً من أن يستعص عما فقدته بحوادث يلفقها لكي لا يفقد ثقة سامعيه ، كما نراه يخلط بين الحقيقة وبين ما يتخيله إذا رأى أن ذكر الحقيقة مجردة لا يحدث في النفس ذلك الأثر الذي كان يتوقعه ، فيضطر لتلافي ذلك بأن يضيف إلى قصته طرفاً من ابتكار خياله يحقق له هذا الغرض . وشعور الطفل أو الصبي أو الرجل بعدم أهمية أحيائه عند سامعيه أو شعوره بالعجز عن التعبير عن مراده تعبيراً صادقاً يحدوه لاستعمال أساليب مبالغ فيها لتحقيق هذه الأمنية ، حتى يثبت فيه هذا الميل ويمتدحج طبيعة ليس في مقدوره التحول عنها وهناك كثيرون ممن إذا سألتهم عن شيء ابتاعوه دفعوا من قيمة هذا الثمن ولو زيادة دراهم قليلة قد لا تؤثر في القيمة الكلية لهذا الشيء ولكنهم بذلك يحققون هذا الميل الذي رسخ في قراة أنفسهم . وقد يأخذ الكذب مظهر آخر هو التغالي في تقرير الصعوبات التي تعترض الواحد من هؤلاء في حياته اليومية ، فلا يكاد يتوسط جمعاً من الناس حتى يبدأ بسرمد ما حدث له بطريقة تمثيلية يستعمل فيها خياله استعمالاً مرثاً ، حتى إذا فرغ من ذلك ووجد رغبة من سامعيه ، اعتدى على ما سمعه عن غيره ونسبه إلى نفسه وقد يأخذ الكذب عند الصبيان مظهر اختلاق الأعذار وتدعيم الحجج التي يحاول بها الواحد منهم أن يبين أن فشله في محاولاته العديدة لا يرجع إلى نقص فيه أو ضعف في قدرته بل هو راجع إلى أسباب لا طاقة له في دفعها كالحزن الشديد لمصيبة حلت به أو لضعف جنائي طبيعي ، أو لاستعداده للدوار أو الاتصال . فالطفل الجبان الذي يرهب أن ينضم إلى زملائه في العابهم ويفضل الأزواء يبتدع مثل هذه الأعذار المكذوبة لكي يقطع نفسه فلا يشعر بنقصه ولكي يقطع من يحاول استفزاز تخوفه ويتعمد إساءته من رفقاته مصرحاً بأنه ينتظر إلى العابهم كسلوك طفولي ينزهه أن يهوى إلى مستواه ، وروح يعان ذلك في كل مناسبة حتى يؤمن بأعذاره ويعتقد صدق أكاذيبه





مشهد ميليفون — صاق (قنطرة) كبرى — من الجو



مطار جامع لخادمين ذي القصب المدهمة ببغداد من الجو

أمام صفحة ٤٤٩

مكتطف ديسمبر ١٩٣١